المحاضرة الأولى: جوهر الفساد

تمهيد:

المراد في هذا المحور محاولة الإحاطة المفهومية بمصطلح الفساد، لغة واصطلاحا، ورؤيته من وجهة نظر الهيئات، والمنظمات الدولية، والمحلية المهتمة بدراسة ظاهرة الفساد، وإعطاء لمحة عنه في الثقافة الإسلامية.

1. الفساد في اللّغة:

الفساد في اللغة العربية ضد الصلاح، من فسد، يفسد، وفسد، فسادا فسودا فهو فاسد وفسيد، فنقول تفاسد القوم بمعنى قطعوا الأرحام، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد ضد الاستصلاح، ويطلق العرب لفظ الفساد على التلف والعطب، والاضطراب والجدب والقحط، فيقال فسد اللحم أي أنتن، ويقال فسد العقل، وفسدت الأمور بمعنى اضطربت، وأدركها الخلل. فالفساد هو خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه، أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن حد الاستقامة.

فقد جاء في قاموس Oxford أن المقصود بالفساد هو تدهور القيم الأخلاقية (Immoral في المجتمع أو لدى الفرد، ويعني الفساد أيضا في اللغة الانجليزية تضييع الأمانة (Dishonesty) بسبب استعمال الرشوة.

2- الفساد اصطلاحا:

تعددت التعاريف الاصطلاحية للفساد تبعا للزاوية التي يُنظر منها إلى الفساد، فالبنك الدولي عرف الفساد بأنه سوء استغلال السلطة العامة من أجل الحصول على مكاسب خاصة، فالفساد من وجهة نظر البنك، على سبيل المثال، يكون في الحالات الآتية:

- قبول رشوة، أو طلبها من قبل الموظف العمومي؛ لغرض تسهيل إجراءات إدارية، تعزز فائدة جهة ما، أو تسرع إجراءات عقودها.

- تقديم رشوة من طرف الشركات، أو وسطائها؛ للاستفادة من امتيازات تنافسية، وتحقيق أرباح غير قانونية في الأصل.
- استغلال الوظيفة من أجل توظيف الأقارب، أو ترقيتهم بطرق غير شرعية.

أما الأمم المتحدة، فقد أشارت إلى تعريف الفساد في المشروع التمهيدي لاتفاقية الأمم المتحدة من أجل مكافحة الفساد، غير أن عدم الاتفاق على تعريف موحد للفساد جعلها تتراجع عن تعريف الفساد، وتعوض ذلك بما أبرزته، في الاتفاقية، من صور الفساد، كالرشوة، واختلاس الممتلكات، واستغلال الوظيفة، والنفوذ، والمتاجرة بالنقود، والرشوة في القطاع الخاص، والإثراء غير المشروع، وإعاقة السير الحسن للعدالة ...وغير ذلك. والملاحظ عموما، أن الفساد، من وجهة نظر المنظمات السابقة، هو إساءة استغلال السلطة، والاستفادة من مزايا تلك السلطة بطريقة غير شرعية؛ لتحقيق مكاسب، تتعلق بالمسؤول، أو بأحد أقاربه.

3- الفساد في الدّين :

3-1 الفساد في القرآن الكريم:

جاء الفساد في القرآن الكريم بمختلف الصيغ خمسين مرة، فأما الفعل:فسد، فذكر في ثمانية عشر موضعا، كقوله تعالى:

"﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ" محمد ﴿٢٢﴾".

وأما المصدر:فساد، فقد جاء ذكره في إحدى عشرة مرة، منها قوله تعالى:

"﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"البقرة ﴿٢٠٥﴾.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم منبهة إلى مخاطر الفساد في شتى مجالات حياة المسلم، وفي ما يأتي استعراض لعدد من آيات القرآن الكريم، تطرق فيها الخالق الكريم إلى سبل الفساد، وآثاره الوخيمة:

وقال المولى عزوجل أيضا:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف ﴿٧٤﴾

2.3. بيان مدلولات الفساد من خلال آيات القرآن الكريم:

أطلق المولى، عزوجل، لفظ الفساد على سفك الدماء، واستنزاف النسل، حين ساقه في معرض قصة فرعون، وتنكيله بقوم موسى حفاظا على ملكه من الزوال:

إن الشعور بالحماية، والأمن، والاطمئنان، من الحاجات الأساسية في أي مجتمع، وفقدان هذه الحاجات فقدان للمعنى الحقيقي للحياة، ولا شك أن شيوع ظاهرة الاعتداء، والتجاوز وسفك الدماء تجعل المجتمع يعيش رعباً مما يجعل الحياة بدون أمل وغير قابلة للتطور وجاء مصطلح الفساد في القرآن كمقابل لمصطلح الصلاح. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف ﴿٥٦﴾

إنَّ مدلول الفساد في ألفاظ القرآن الكريم مدلول شامل، يضم أنواع الفساد، وصوره جميعا، وقد جعل الشارع الحكيم المعاصي، بمختلف أشكالها ومستويات أضرارها، فساداً في الأرض، فكل المخالفات خروج عن جادة الصلاح، وانحراف عن الطريق المستقيم، سواء أكانت هذه المخالفات في مجال السلوك الخاص، أو العام، وفي مجال الجرائم الجنائية، أو الاعتداء على الحقوق المدنية، أو الحقوق العامة.

3-3- بيان أنواع الفساد وأمثلته في القرآن الكريم :

على ضوء ما قيل سابقا، فإن الشرع الحنيف قد جعل كل المعاصي المؤدية إلى الإضرار بالخلق، والطبيعة، فسادا في الأرض، ومن ثمة، فإن الفساد قد يكون في العقيدة، فيسمى فسادا عقديا، وهو أسوأ أنواع، وقد يكون أمنيا، واجتماعيا، مثلما يكون ماليا، أو أخلاقيا، وهذه الصور، والأنواع يمكن إحاطتها بشرح موجز:

الفســـاد في العقيدة:

هو فساد الاعتقاد الذي هو أساس كل فساد، فسعي الإنسان تبع لمعتقده؛ فإذا كان المعتقد فاسدا، كان السعي فاسدا، وإذا كان المعتقد صحيحا صالحا صلح سعيه، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ البقرة ﴿١١﴾.

قال ابن عباس . رضي الله عنهما . المراد بالفساد: الكفر، وقال غيره: إنه النفاق الذي صادقوا به الكفار، وأطلعوهم على أسرار المؤمنين.

وكل من الكفر والنفاق اعتقاد فاسد، يفسد به سلوك المرء، فيسعى في الأرض فسادا، وكيف يصلح من سلب الإيمان من قلبه؟ فالكفر، والنفاق نوعان خطيران من أنواع الفساد، فهما يؤثران بشكل حاسم في مسار الإنسان، ويطبعان علاقاته، وسلوكه العام.

الفساد الأمني والاجتماعي:

الأمن أساس النعم، ومن فقد الأمن لا يشعر بسائر النعم ... يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا). فتراه قدَّم الأمن على الصحة، والرزق، على ما لهما من دور في بقاء الإنسان، واستمراره على قيد الحياة.

وكما أسلفنا، فإن أغلب آيات القرآن، التي جاء فيها ذكر الفساد، جاءت مرتبطة بالأرض، التي هي موطن الإنسان، ومسكنه وفيها نشاطه، وأسباب عيشه.

الفساد المالي:

المال عصب الحياة، وعماد تقدمها، وازدهار مجالاتها، وقد عني الإسلام بتنظيم علاقات البشر المالية، وحرص، أيما حرص، على إحاطتها بالضوابط، والمعايير الكفيلة بحفظ الحقوق، وترشيد المعاملات، وإقصاء كل غلو، أو استغلال، يفضي إلى الإضرار بممتلكات الأفراد، والجماعات:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الربا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الربا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَآءه مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة ﴿275﴾

ومن المفاهيم التي تناولها القرآن نموذج غياب الأمانة في الأسواق، وسوء العرض، والإنتاج، والبيع،كما يظهر ذلك في التدليس، والاحتكار، والتطفيف، والغش في السلع، وعدم الصدق في المواثيق، والعقود.

الفساد الأخلاقي:

وهو من أخطر أنواع الفساد؛ لأنه فيه اعتداء على الأعراض، وحقوق الآخرين، وهو يتنوع بتنوع العلاقات الاجتماعية، وخصوصية المعاملات، وأشكال التفاعل الإنساني، فيشمل الصلات بين أفراد الأسرة، والأقارب، يمتد إلى محيط الجيران، وميادين العمل، والنشاط الاقتصادي في المجتمع.

وفي مجال الروابط الاجتماعية، تتحول العلاقة غير الشرعية بين الرجل، والمرأة إلى زنا، وفساد في الأرض؛ لذلك نظم الله العلاقة الجنسية، فقصرها على الزواج، وجعل غير ذلك تعديا صريحا على المجتمع.

ومن الظواهر الفساد الأخلاقي في الجانب الاقتصادي أيضا، ترويج بيع المخدرات، وممارسة الدعارة، والمتاجرة بالمسكرات، والعقاقير المهلوسة، وتعميم استهلاكها بين الشباب، وصغار السن من التلاميذ في المدارس؛ لما يتبع ذلك من انحلال اجتماعي، وانحراف خلقي، وجرائم فادحة الخسائر، قد تنتهي بصاحبها إلى السجن، أو الإدمان، والموت.

الفساد البيئي:

أولت الشريعة الإسلامية الحنيفة أمور البيئة كل العناية، فكان من مبادئها عدم الإسراف في استهلاك المواد، والأشياء، وكل ما ينتفع به، ومن ذلك مثلا نهيها عن المغالاة في استعمال الماء، ولو كان ذلك في الطهارة، إذ ينبغي على المتوضئ أن يقتصد في الماء، ولو كان على ضفة نهر جار، وحمت الشريعة الماء أيضا، من التلوث، فنهرت عن التبول في منابعه، وعيونه، كما زجرت السادرين في ظلمهم، واستهتارهم عن إيذاء الناس برمي النجاسات، والقمامة في مواضع عيشهم، وسبلهم، وموارد ريّهم، مشدّدة على أن الاعتداء على البيئة اعتداء على الإنسان ذاته.

2-3 الفساد في السنة النبوية الشريفة :

وردت أحاديث كثيرة، تتحدث عن الفساد، والمفسدين، من أهمها ما يأتي:

حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما متشابهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن أتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب " الحديث أخرجه البخاري.